**خامسا- السرد العجائبي:**

تعد الحكايات وكتب الجغرافية والرحلات من التراث العربي الزاخر بالعجائبي في مختلف تنوعاته، من خلال ما حمله عند انتقاله من الشفاهية إلى دوائر الكتابة في حلقة متصلة، وتعرضه لتفاعل نصي، جعله منفتحا على أنساق ثقافية وعقائدية وتاريخية واجتماعية مما أدى إلى تنوع صور العجيب والخارق في هذه الوحدات السردية، وعلى الرغم من "الانفتاح العجائبي على المتخيل السّردي العربي بمروياته وسجلاته المكتوبة، وعلى المتخيل بمراجعه التاريخية، والدينية والثقافية كافة إلا أن العربية لا تزال تفتقر إلى وجود معجم تاريخي عربي يعنى بدلالات الكلمة وبتطورها الثقافي عبر العصور المختلفة، كما أنّها تفتقر إلى وجود معجم فلسفي تأصيلي يعنى بذاكرة المصطلح ودلالته المتنوعة عند النّقاد العرب القدامى، وفي المشهد النّقدي المعاصر".([[1]](#footnote-2))

فالعجيب في التراث كمفهوم غير موجود قديمًا، لأن المصطلح ينتمي إلى العلوم الإنسانية الحديثة، إلا أنّه من الممكن البحث لغويا وعن مدلولاته في المعاجم العربية، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور "أن العُجْبَ ما يَردُ عليك لقلة اعتياده، وأن أصل العجب في اللّغة أن الإنسان إذا رأى ما يكره... قال: قد عجبت من كذا" و"العَجَبُ النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد" و"التعجب أن ترى الشيء يعجبك تظن أنّك لم تر مثله" و"آيات الله عجائبه"([[2]](#footnote-3))، فهو يرى أن العجيب هو الأمر النادر الحدوث، الذي يثير في نفس الإنسان الدهشة والاستغراب لقلة اعتياد الإنسان عليه وهو يعرفه انطلاقا من تراكمات سابقة.

فقد جاء في (مقاييس اللّغة) لابن فارس: "وتقول من باب العجب: عجِبَ يَعجبُ عجبًا، وأمر عجيب وذلك إذا استُكبر واستُعظم، قالوا: وزعم الخليل أنّ بين العجيب والعُجاب فرقًا فأمّا العجيب والعجبُ مثله "[فالأمر يتعجّب منه] وأمّا العجاب فالذّي تجاوز حدّ العجيب".

من خلال ما تقدّم نلاحظ أنّ جميع المعاجم القديمة تُجمع على أنّ العجيب هو الأمر النادر الحدوث. أمّا فيما يخص المعاجم الحديثة فقد ورد في قاموس (محيط المحيط) ل"بطرس البستاني" "أنّ العجبُ إنكار ما يرد عليك واستطرافه، وروعة تعتري الإنسان عند استعظام الشّيء (...)، والتّعجب: انفعال نفسي عمّا خفي سببه"، في حين يرى "جبران مسعود" في (الرّائد) أنّ العجب: انفعال يُصيب المرء عند استعظام الشيء، ويذهب "كرم البستاني" في قاموس (المنجد في اللّغة والأعلام) إلى أن العُجْبُ إنكار ما يرد عليك العَجَبُ ج أعجاب: انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه، ومنه فالمعاجم الحديثة ترى في أنّ مفهوم العجيب "يدخل في نطاق الانفعالات النّفسية للإنسان".

أما القواميس الأجنبية فقد ورد في قاموس "لاروس الصغير" **Le** **Petit** **Larousse** ما يلي: العجيب هو الذّي يَبعُد عن ساحة المألوف والعادي للأشياء، أو الذي يظهر فوق الطبيعي([[3]](#footnote-4)).

في حين نجد في "القاموس الموسوعي" "**Encyclopédique** **Quillet** **Dictionnaire**" أن كل عجيب هو ما يبعد عن ساحة المألوف للأشياء (...) وأدبيًا توجده وسائط فوق طبيعته مثل آلهة الأساطير الشّياطين والملائكة عالم الجن...".

فالعجيب في هذه القواميس الأجنبية يكمن في الأشياء فوق طبيعيّة، التي يصعب إيجاد تفسير لها في العالم المألوف، فهو كلّ شيء خارق للعادة والطّبيعة.

بعد وقوفنا عند التحديد المعجمي لكلمة عجيب "عجائبي"، نتطرق إلى استعراض أهمّ المفاهيم الاصطلاحيّة الخّاصة بالعجائبي، انطلاقًا من الكتب التّراثية القديمة، وصولاً إلى المفاهيم الحديثة عند العرب ثمّ الغرب.

القزويني (**ت682ﻫ**) في كتابه "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"([[4]](#footnote-5)) يقدم تعريفا في غاية الأهمية، فهو يحاول أن يجعله أكثر دقة، يقول: "العجب حيرة تعرض الإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء وعن معرفة كيفية تأثره به" وهذا التعريف يشبه إلى حد كبير ما جاء به اللغوي الكبير الجرجاني فبالنسبة إليه: "العجب هو تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله"، إذ كلاهما يربط العجيب بتغير الحالة النّفسية للإنسان، بسبب عدم قدرته على تفسير بعض الأمور التي تصادفه في حياته، أما الجاحظ (**ت255ﻫ**) فهو يخالفهم الرأي، فإذا ما كانوا يعرّفون العجيب مثلما يعرفون الغريب من جهة المشاهِد المنفعل بما يَلحْظُ عينيا وبصريا المادة والشيء غير المألوف، فإنّه ينظر إليه من جهة علاقة المتلقي بالسارد، فيتحدث عن أثر الخطيب في العامة من النّاس قائلا: "فإذا هجموا على ما لم يحتسبوه وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حُسْنُ كلامه في صورهم وكبر في عيونهم، لأن الشيء من غير معدنه أغرب وكلما كان أظرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنّما ذلك كنوادر كلام الصبيان ومُلح المجانين فإنَ ضحكَ السامعين من ذلك أشدّ وتعجبهم به أكثر، والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البديع"([[5]](#footnote-6))

العجائبي عرف في الثقافة العربية الإسلامية انفتاحا على حقول معرفية متعددة وارتباطا بالمستوى العقائدي، لأن "حضور العجائبي المرتبط بالديني يظل مهيمنا لاعتبارات شتى منها هيمنة النّصوص الرحلية الحجية والزيارية، وتأثير الوعي الديني والمعجزات وارتباط الرحّالة بهذا الفضاء واعتمالاته سواء كان الرحّالة فقيهًا أو متصوَّفًا أو متأثرًا".

ولقد أشار محمد أركون أن لفظة "عجيب" لا تخرج عن سياقها القرآني، ويلاحظ "في الإسلام، مثلما في المسيحية أن الفكر الديني، الأورثوذكسي، وعقلانية النُّخب نجحا في كبت العجيب في المعتقدات والآداب الشعبية، أي في مستوى النشاط الثقافي الدوني، حصة الأطفال والجدّات والشعوب المتأخرة([[6]](#footnote-7))"، عُومِلَ العجيب بدونية باعتباره لا يخدم المقولات العامة المهيمنة. ولأن العجيب في التراث العربي يشتغل بالطريقة نفسها في أغلب النّصوص، فهو يحقق أهدافا جمالية ونفسية، إذ يتيح منفذًا إلى الراحة والطمأنينة واللذة والوفرة.

إذا أردنا المقارنة بين مفهوم محمد أركون ومفهوم الأوائل، ألا يمكنا القول أن العجيب في التفكير العربي هو الحيرة التي تستبد بالإنسان بسبب عدم قدرته على معرفة علّة الشيء أو سببه أو الطريقة التي ينبغي إتباعها للتأثير فيه، هذا العجيب الذي ينتهي بالاندهاش والإعجاب به بسبب الألفة والرؤية المتكررة، وما يعتبر عجائبيا اليوم تزول عنه هذه الصفة بمرور الوقت([[7]](#footnote-8)).

**1- تمظهر العجائبي في النصوص السردية القديمة:**

إن مجيء الإسلام، أضفى على العقلية العربية نوعا من الواقعية، إذ حاول وبشتى الطرق محو الكثير من المعتقدات التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية معتبرا إياها أباطيل وأساطير الأولين، ومما يشوش على العامة عقائدهم

**1-1 الحكايات الشعبية:** حيث انعد من أشهر مكونات الكتب ذات الطابع الشعبي والبنية التعجبية؛ حيث يقوم على وصف عوامل فوق طبيعية داخل عالم طبيعي مألوف وشخوص يتخذون هيئات كثيرة، أي يطالهم الامتساخ والتحول. مما يدعو إلى الحيرة والتردد في نفس المتلقي.

**1-2 السير الشعبية:** أهم السيّر: سيرة عشرة بن شداد، وسيف بن ذي يزن، الأميرة ذات الهمة...إلخ، بالإضافة إلى العدد الذي لا يحصى من السير الأخرى والشخصيات الأسطورية التي أثرت الخيال العربي وميَّزت دروبه، ودلت على «عظمة هذا الأدب الذي تنتمي إليه وكذا إنسانيته»([[8]](#footnote-9)).

**1-3 كتب الفتوح والمغازي:** وقد استمدت مادتها من تاريخ المسلمين إبان الفتوحات الإسلامية، وهي عبارة عن حكايات شعبية ذات أصول تاريخية، يتجاوز فيها الواقعي والعجائبي سواء على مستوى الأحداث أم الشخصيات، أم الزمان والمكان، الشيء الذي يعني أن المتخيل العربي الإسلامي ساهم بشكل كبير في صياغتها وإنتاجها.

نذكر على سبيل التمثيل: غزوة وادي السيسبان التي تحكي جانبا من سيرة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- ومغامراته في هذا الوادي، والتي كان للبعد العجائبي جليا فيها ذلك أن طي الأرض وانمحاء المسافات الزمانية والمكانية يحضر بشكل كبير في هذه الغزوة.[[9]](#footnote-10)\*

**1-4 كتب الصوفية:**

لا ولاية إلا بكرامة فالكرامة، هي ما يبرر الولاية ويمنحها شرعية الا نوجاد، فالكرامة في اصطلاح أهل السنة هي الأمر الخارق للعادة، الذي يظهره الله على يدي عبد مومن صالح عمر مقرون بدعوى النبوة. ([[10]](#footnote-11))

وقد ذهب أهل السنة والجماعة من الفقهاء والأصوليين والمحدثين\*[[11]](#footnote-12)\* وغيرهم خلافا للمعتزلة ومن وافقهم إلى أن ظهور الكرامة على الأولياء جائز عقلا، لأنها من جملة الممكنات، وأنها واقعة نقلا مفيدا لليقين من جهة مجيء القرآن بها، ووقوع التواتر عليها قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، وبعد ثبوت الوقوع لا حاجة إلى إثبات الجواز، قال ابن تيمية: وكرامات الأولياء حق باتفاق أهل الإسلام والسنة والجماعة وقد دل عليها القرآن في غير موضع، والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم، وإنما أنكرها أهل البدع من المعتزلة والجهمية ومن تابعهم.([[12]](#footnote-13))

والكرامات إما حسية أو معنوية، ([[13]](#footnote-14)) تصدر الأولى عن الجوارح أو أنها ذات صلة بها، وتتعلق الثانية بالعبادة وبالسلوك الصوفي، ومن كرامات الجوارح المستعملة في الطاعة المتجنبة للمعصية، ذكروا ما يلي:

**بالعين:** رؤية الزائر فيل قدومه، على مسافة بعيدة ولو خلف حجاب كثيف.

**بالأذن:** ويمكن أن يدخل في هذا الإطار سماع الأحياء والجمادات على السواء.

**باللسان:** الجارحة التي تكلم بهما الملأ الأعلى، فكان لسانهم آية تدل عليهم.

**البطن:** من كراماتها التحفظ في ألا يدخلها مكروه من طعام أو من شراب، والشبع بالقليل من الطعام وسهولة الإرتواء بالقطراة من الماء.

فالكرامة تتخذ صيغا شتى، تنبني على انحراف العادة ومفارقتها للواقع والمعتاد، تماما كما هو الأمر بالنسبة لانفلاق البحر وجفافه، والمشي على الماء، وطي الطريق وانزواء الأرض، وكلام الجمادات والحيوانات، وإبراء العلل والصبر على الجوع، ورؤية المكان البعيد... ([[14]](#footnote-15))

فالولي الصالح هو الأقدر على خرق العادي، وفقا لما تؤسسه الكرامة، وما يتقعد تاريخا عن طريق التواتر، فكل استعصاء للأمور يجد طريقه إلى الحل والتسيير على عتبات الزوايا أو الأضرحة، بل إن كل ما يحدث يمكن أن يتم (التدخل) فيه عن طريق سلطة الولاية وتأثيرات الكرامة، فالأولياء "يقدرون على تغيير مجرى الحوادث والأشياء، يشفون الأمراض المستعصية التي لا ينفع معها علاج طبي، ويروضون الحيوانات المفترسة ويصاحبون الجن".([[15]](#footnote-16))

وهنا يصير الإبراء من الأمراض وشق الصدر وتعلم القرآن وحفظه، والمشي فوق الماء وطي الطريق وتظليلها، والطيران في الجو، وتحويل الرمل ذهبا، وما إلى ذلك من الخوارق التي عجت بها كتب الرحلات الزيارية، يصير هذا الكل الكراماتي موجبا للاعتراف بالفعالية الرمزية للولاية، مع ما يستنتج هذا الاعتراف من اعترافات أخرى بالنفوذ الروحي الذي يؤسس سلطا وعلاقات وأتباع.

**1-5 الخطابات الأليغورية الرمزية:**

شخوصها اِختيرت من الحيوانات، ومن نماذجها كليلة ودمنة، التي حاولت تصوير فضاء حيواني عجائبي، لا يختلف كثير عن العجائبية في بعض الأعمال الفنية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا.

ومن الخطابات الرمزية ما يعتمد على الحلم كرسالة الغفران، ذلك أن الحلم شغل دورا كبيرا في اخصاب المخيلة العربية، وإعطاء الإعمال الإبداعية أبعادا موحية وفريدة، وهي تخفي وراءها معاني أخلاقية أو دينية غير المعنى الظاهر.

**1-6 كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات:**

تضمنت كتب التاريخ أخبارا وحكايات غريبة تعود في معظمها إلى مخيلة المؤرخ أو الجغرافي أو الذاكرة الشعبية ولا أدل على ذلك مما ورد في مروج الذهب عند المسعودي وما رواه كل من وهب بن منبه وكعب الأحبار عن الأخبار والقصص والأساطير التي إمتلأت بها كتب الجغرافيا والرحلات والعجائب، من هذه الأساطير التي سِّودت بها الكتب القديمة ما تعلق بالغول وهو كائن خرافي ظل العرب يعتقدون بوجوده([[16]](#footnote-17)).

وعليه فالبعد العجائبي كان حاضرا وبقوه في كل هذه المعتقدات الشعبية. فقد أثرتها المخيلة العربية القادرة على إنجاب أجمل الأساطير من مجرد إشارات قرآنية، لم تشفِ غليل القوم، فراحوا ينسجون الأساطير من حولها نسجا مثيرًا، يبعث التردد والحيرة في نفوس المتلقين.

انتعش في السنوات العشر الأولى للخلافة نوع من الجغرافيا يطلق عليه" الجغرافيا الأسطورية".([[17]](#footnote-18)) هذا النمط الذي يمكن عده شكلا من أشكال العجائب والغرائب التي ملئت بها كتب الرحلات خصوصا.

وقد ارتبط هذا النمط ببعض الأماكن الأسطورية كجبل قاف الذي يقول عنه القزويني«إنه جبل محيط بالدنيا وهو من زبر جدة خضراء منه خضرة السماوات ووراءه عالم وخلائق لا يعلمهم إلا الله»([[18]](#footnote-19)) وعلى الرغم من غياب إشارة قرآنية إلى هذا الجبل.

ومن الموضوعات التي وردت في القرآن الكريم ودارت حولها الأساطير سد يأجوج ومأجوج وقصة أهل الكهف، دونتها كتب المتقدمين من أمثال المسعودي والقزويني وابن خرداذبة وياقوت الحموي والغزناطي.

كل هذه المعتقدات الشعبية استفحلت بين العامة والخاصة حتى أنه لم يقدر أحد من العلماء على دفعها وهو مما يغذي البعد العجائبي في أدب الرَّحلات.

**2- نماذج من حضور العجيب في حكايات ألف ليلة وليلة:**

* تصوير المارد: وخرج من ذلك القمقم دخان صعد إلى عنان السماء ومشي على وجه الأرض فتعجبت غاية العجب.
* وبعد ذلك تكامل الجان واجتمع ثمَّ انتفض فصار عفريتا.
* رأسه في السَّحاب ورجلاه في التراب ([[19]](#footnote-20))
* **في وصف المدينة:** في وصفها نجد

«فبينما هو سائر في صحاري اليمن وأرض سبأ إذ وقع على مدينة عظيمة وحولها حصن عظيم، وحول ذلك الحصن قصور شاهقة في الجو(...)، له بابين عظيمين لم يُر في الدنيا مثلهما في العظم والارتفاع وهما مرصعان بأنواع الجواهر(...) فرأيت ذلك الحصن طويلا مديدا مثل المدينة في السَّعة...». ([[20]](#footnote-21))

* **المسخ:**

هو تحويل البشر إلى حيوانات أو أشياء أخرى مما يجعله شكلا هاما من أشكال العجيب.

من نماذج في ألف ليلة وليلة: (حكاية العفريت والصَّياد).

«وكانت بنت عمي هذه الغزالة تعلمت السحر والكاهنة من صغرها فسحرت ذلك الولد عجلا وسحرت الجارية أمه بقرة »([[21]](#footnote-22)) ونجد في موضع آخر: «...قال ياحسن عمر البوتقة وكب الكير، ففعل ما أمره به الأعجمي وأوقد الفحم، فقال له يا ولدي هل عندك نحاس؟ فقال عندي طبق مكسور فأمره أن يتكئ عليه بالكاز ويقطعه قطعا صغيرة (...) وأخرج ورقة ملفوفة وفتحها وذر منها شيئا في البوتقة مقدار نصف درهم (...) حتى صار سبيكة ذهب".([[22]](#footnote-23))

وتزخر حكايات ألف ليلة وليلة بأشكال متعددة للعجائبي فلا تخلوا حكاية منه.

1. () ضياء الكعبي، السرد العربيّ القديم، الأنساق الثقافيّة وإشكاليّات التأويل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص33. [↑](#footnote-ref-2)
2. () ابن منظور، لسان العرب، المحيط، قدَّم له: عبد الله العلايلي، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة، يوسف خيّاط، ج4 (مادة عجب)، د.ط دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، 1988، ص687. [↑](#footnote-ref-3)
3. () Aimeé Aljanic Et D’autres, Le Petit Larousse, Imprimerie Casterman Nouvelle édition Belgique 1995, P649 [↑](#footnote-ref-4)
4. () القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1981، ص31. [↑](#footnote-ref-5)
5. () الجاحظ، البيان والتبيين، د.ط، دار الكتب العلمية، لسان، د.ت، ص50. [↑](#footnote-ref-6)
6. () محمد أركون، توفيق فهد، جاك لوكوف، العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، ترجمة وتقديم عبد الجليل بن محمد الأزدي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص19. [↑](#footnote-ref-7)
7. () ينظر، ضياء الكعبي، السّرد العربي القديم، ص34. [↑](#footnote-ref-8)
8. () عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، دراسة المجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ) الجزائر، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1989، ص 17. [↑](#footnote-ref-9)
9. \* النص وإن كان يستمد شعريته من مادة إسلامية، فإنه يتحرر من مختلف سيماتها ويتعامل معها بشكل طليق فهناك العديد من المغالطات التاريخية والجغرافية. [↑](#footnote-ref-10)
10. () ينظر، أبو عمر بن عبد الملك الزغبي، كرامات الأولياء، ص22. [↑](#footnote-ref-11)
11. \*\* لقد تعددت الحدود والتعريفات بخصوص "الكرامة" ربما بحسب مواقفهم منها، وهي مواقف ترجحت بين القبول والرفض والتحفظ طوال تاريخ التصوف اسطوغرافيا، الولاية في الفكر المغربي والعربي الإسلامي، ونحن لا يعنينا الدفاع عن صحة تحديد معين أو دفع خطأ غيره، ولكن همنا التمهيد لدراسة نصوص الكرامات، الموجودة في الرحلات الزيارية، وتؤكد مرة أخرى أن الهدف من جرد الكرامات، لا يتصل بالدفاع عن معقوليتها وثبوتيتها ولا الدخول في رفضها أو تبخيسها، إن هي إلا متون الاشتغال والتفكير، بعيدا عن الاحتفاء أو الإنكار. [↑](#footnote-ref-12)
12. () المرجع نفسه، ص23. [↑](#footnote-ref-13)
13. () عبد الله بن عتو، أدب الكرامات، من ميثاق الثقة إلى خطاب التماهي، دار الأمان، ط1، 2014، الرباط، المغرب، ص53 [↑](#footnote-ref-14)
14. () يوسف بن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص47. [↑](#footnote-ref-15)
15. () الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، الحكاية والبركة، ص27. [↑](#footnote-ref-16)
16. () الخامسة علاوي، العجائبية في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجًا، منشورات جامعة متنوري، قسنطينة، 2006، ص31. [↑](#footnote-ref-17)
17. () كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ص 51. [↑](#footnote-ref-18)
18. () القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص158. [↑](#footnote-ref-19)
19. () ينظر، ألف ليلة وليلة، ج1، الدار النموذجية للطباعة والنشر، (د، ط)، لبنان 1428/2007، ص 18. [↑](#footnote-ref-20)
20. () ألف ليلة وليلة، ج2، ص 294. [↑](#footnote-ref-21)
21. () ألف ليلة وليلة، ج1، ص 13 [↑](#footnote-ref-22)
22. () ألف ليلة وليلة، ج4، ص 177. [↑](#footnote-ref-23)